تاريخ الإرسال: 2013/08/22 - تاريخ القبول للنشر: 2013/11/26 تاريخ النشر: 2013/12/23

اللامنهج واشكالية تحرير العلم

بوصالحيم حمداني

جامعة زيان عاشور الجلفة

مقدمة:

إن الثورات العلمية المتتالية التي شهدها الفكر العلمي المعاصر منذ مطلع القرن العشرين في مجال الفيزياء النظرية والمتمثلة في اكتشاف النظرية الكوانطية على يدي ماكس بلانك (1858–1947) ، ونظرية النسبية الخاصة والعامة على يد ألبرت آنشتاين (.1897–1955) ،وظهور الهندسات اللااقليدية ،وما تبع هذه الثورات من تطورات علمية كاكتشاف الحاسب الآلي، وبرنامج الذكاء الاصطناعي ،ومشروع الجينوم البشري ، وتطبيقات الهندسة الوراثية ، قد أحدثت هزة عميقة في مجمل البنية المعرفية للعلوم الطبيعية و الاجتماعية ، و أدّت إلى أزمة زعزعت كل المبادئ و الأسس النظرية ، و المنهجية التي قام عليها العلم الكلاسيكي ، وجعلت العقل العلمي المعاصر يعيد النظر في الكثير من المبادئ والمفاهيم التي كانت تعتبر في عرف العلم الكلاسيكي من المطلقات والبديهيات التي لا تقبل النقد ، ويعد مفهوم العقلانية ، و المنهج العلمي من أكثر المفاهيم عرضة لهذه المراجعة النقدية ، وتعد هذه الورقة البحثية محاولة لتسلط الضوء على تلك الأزمة الحادة التي عصفت بعرش المنهج العلمي والذي يعد أحد الأركان الأساسية التي قامت عليها العقلانية العلمية الكلاسيكية ، وسنركز في تحليلنا لهذه الإشكالية على المقاربة الابستمولوجية التي قدمها بول فيرابند (1924 – 1994) أحد أبرز فلاسفة العلم المعاصرين ، الذين قدّموا قراءة جديدة لفلسفة العلم، اتّسمت بالطابع الثوري على كل المناهج العلمية السابقة ، و على كل الأنماط و النظريات المعروفة في حقل العلم و فلسفته .

المنهج العلمي والعقلانية العلمية الكلاسيكية:

لقد ارتبط مفهوم العقلانية في فلسفة العلم الكلاسيكية بالمعايير و القواعد التي تحكم و توجه الفكر أو الفعل، حيث يوصف الفكر أو الفعل ، بأنه عقلاني حتى كان يسير وفقا لأفضل المعايير المتاحة ، و يوصف التفكير بأنه عقلاني إذا كان مطابقا لمجموعة من القواعد الواضحة، و هذا ما يفسر ارتباط العقلانية بالميتودولوجيا ، باعتبار أن المنهج هو ما يوفر منطق أو معيار عقلاني من شأنه أن يبرر قبول أو رفض القضايا أو العبارات، « و

العلم في جوهره ليس شيئا غير البحث المنهجي عن المعرفة ، و صفة المنهجية صفة أساسية في العلم، حتى أنه في وسعنا أن نعرف العلم عن طريقه فنقول أن العلم في صميمه معرفة منهجية و بذلك نميزه بوضوح عن أنواع المعرفة الأخرى التي تفتقر إلى هذه الصفة (بدوي .2001،352) ، و يرجع ارتباط العقلانية بالمنهج إلى الفكرة الجوهرية التي يتأسس عليها مفهوم العقلانية،

و نعني بها فكرة : «النظام» ، «فالنظام» هو أحد مفاهيم العقل الأساسية، و يشمل الترتيب الزماني، و الترتيب المكاني

و العلل، و القوانين ، و النظام الطبيعي هو اطراد لوقوع الحوادث، وفقا لقوانين معينة (لالاند .1997' 720).

و على هذا الأساس فان مهمة العلم هو إيجاد تفسير منظم (عقلاني) للعالم، و ذلك بوضع طريقة أو منهج محدد يقوم على مجموعة من القواعد و المعايير الثابتة لتنظيم تفكيرنا و ممارستنا العقلية، و في الوقت نفسه تنظيم العالم الخارجي فتقدم العلم و البحث العلمي يبقى رهين بالمنهج، و يدور معه وجودا و عدما دقة و تخلخلا ، خصبا و عمقا ، صدقا و بطلانا ، و أن انتكاسة العلم تعود إلى النقص في تطبيق قواعد المنهج العلمي (بدويى.1968 ، 10) .

و تعتبر فكرة عقلانية المنهج العلمي ، – بمعنى أن المنهج العلمي القائم على مجموعة المبادئ العقلية الثابتة التي يجب على الباحث أن يتبعها خلال البحث العلمي – المسلمة الأساسية التي قامت عليها تصورات الفلاسفة و الميتودولوجيين للمنهج العلمي من «أرسطو» إلى «كارل بوبر» ، فقد جعل «أرسطو» من القياس ، المنهج الوحيد و الضروري لقيام العلم و ألح «ديكارت» على أن البحث في المنهج يعد من أهم المشكلات ، و أولاها عناية في مهمة الفيلسوف، فالشعور بضرورة المنهج هو أول ما يلزم من أدوات التفلسف ، و اعتبر «الاستقراء» عند «التجريبية المنطقية»، الطريقة الوحيدة و اللازمة لتخليص العلم من المتافيزيقا ، و جعل «كارل بوبر» من قواعد التكذيب شرطا لازما لتمييز العلم عن اللاعلم، فمسألة تحديد منهج الممارسة العلمية ضرورة و قناعة عقلية ميزت كل الميتودولوجيات الكلاسيكية .

لكن تحول الاهتمام في فلسفة العلم المعاصرة من دراسة التركيب المنطقي لنتائج البحث العلمي، و من دراسة العلم كنسق مغلق ، إلى دراسة النسق العلمي في صيرورته، و تفاعله مع أنساق حضارية أخرى كالتاريخ ، و الثقافة و السوسيولوجيا ، و السيكولوجيا، و غيرها من النشاطات الإنسانية الأخرى، أدى إلى إعادة النظر في هذا المفهوم العقلاني الصارم للمنهج العلمي، الذي لم يعد صالحا لفهم و دراسة ظاهرة العلم .

لقد بينت فلسفة العلم المعاصرة أنه لا وجود لمنهج علمي ، كلي لا تاريخي ، و ليس ثمة قواعد و مبادئ ثابتة تحكم مسيرة العلم، فطبيعة المرحلة التي يمر بها العلم ، و طبيعة المشكلة المطروحة للبحث هي التي تحدد طبيعة الإجراءات و طبيعة المنهج ، و ليس العكس، بل أن أكثر العقبات الابستمولوجية التي تقف أمام تقدم العلم هي في حقيقة الأمر عقبات منهجية، و تجاوزها إنما يعني رفض هذه المنهجية، و ابتكار وسائل جديدة تمكننا من تجاوز تلك العقبات (حسين.1992، 333) ، و هذا ما جعل «بول فيراند» يدعو صراحة في كتابه «ضد المنهج» ، إلى تحطيم دغما المنهج ، و تحرير العلم من قيوده، كما سنبينه في ما يلي:

اللامنهج وإشكالية تحرير العلم:

يعتبر موقف «فيرابند» من المنهج من المواقف الأكثر جرأة و تميزا في فلسفة العلم المعاصرة، و يكمن هذا التميز في أن «فيرابند» قد نقل مجال البحث ، من التساؤل عن المنهج الأكثر فعالية، و الأكثر دقة و موضوعية، إلى التساؤل عما إذا كان هنالك حقا منهجا كليا، ثابتا، يتوجب إتباعه، و الالتزام بقواعده لفهم و دراسة هذا الواقع العلمي المعقد .

يرى «فيرابند» أنه ليس ثمة «منهج علمي ، و لا توجد مجموعة من الإجراءات أو مجموعة من القواعد تشكل أساسا لكل نموذج بحث علمي ، و ضمانا له «، فعلى الرغم من وجود أنماط للنجاح في العلوم ، إلا أنه ليس ثمة منهج ثابت و لا يمكن أن يكون ثمة منهج كلي، فالانجازات التي تمت في مجال العلوم لا يمكن أن تعزى لوجود مبادئ عامة، تغطى كل المجالات ، فلا توجد حقيقة كلية، و لا معايير محددة للمعرفة و العقل.»feyerabend .1989’173) و حتى و إن كانت المعايير و القواعد الميتودولوجية مطلوبة من أجل السير العقلاني و المنطقي للبحث (و خاصة البحث العلمي) فانه يتوجب ألا نجعل من تلك المعايير و القواعد ، المعايير الثابتة و الوحيدة، لأن ذلك سيكبح مسيرة العلم خاصة إذا كانت تلك القواعد و المعايير تعبر عن تصورات مذهبية.

كما أن الالتزام الصارم بقواعد المنهج يؤدي إلى خنق القدرات العقلية، و كبح قوة الخيال، و الحد من القدرات الإبداعية فالفكرة القائلة بأن العلم يمكن له ، و ينبغي له أن ينتظم وفقا لقواعد ثابتة و كلية ، هي فكرة مثالية، و ذات بريق خادع، فهي مثالية لأنها تتضمن تصورا مفرطا في البساطة حول ما يملكه الإنسان من استعدادات و قدرات ، و حول الظروف التي تشجعها على النمو، و هي براقة خادعة من حيث أن محاولة فرض مثل هذه القواعد لا تخلو من جعل الزيادة في كفاءتنا المهنية لا يكون إلا على حساب إنسانيتنا فضلا عن أن هذه الفكرة مضرة بالعلم ، لأنها تهمل الشروط الفيزيائية و التاريخية المعقدة التي تؤثر في عملية التحول العلمي ، إنها تجعل مشروعنا العلمي أقل مرونة ، و أكثر دوغماتية (feyerabend .1979 ’332) .

إن فكرة الالتزام بقواعد المنهج التي ميزت معظم الميتودولوجيات في فلسفة العلم الكلاسيكية و المعاصرة، تقوم حسب «فيرابند» على مسلمة خاطئة، و هي الاعتقاد بوجود منهج وحيد ينبغي الالتزام به في الممارسة العلمية، و أن هذا المنهج هو السبيل الوحيد لتحصيل المعرفة و اكتشاف الحقيقة ، و يستند «فيرابند» إلى تاريخ العلم للبرهنة على بطلان هذا الاعتقاد حيث يقول : « أن فكرة وجود منهج ينطوي على مبادئ صارمة و ثابتة تحكم مسيرة العلم تواجهها صعوبات جمة عند مجابهتها بنتائج البحث التاريخي ، اذ أنه ليس ثمة قاعدة واحدة مهما كانت مؤسسة و راسخة في حقل الابستمولوجيا، لم يتم انتهاكها و لو لمرة واحدة، و هذه الانتهاكات لقواعد المنهج، ليس حوادث عرضية، و ليست ناتجة عن نقص في معارفنا، أو عن عدم وعي يمكن تداركه، بل هي على العكس ضرورية للتقدم العلمي» (feyerabend'«.1979 '21) ، و قد أثبت تاريخ العلم أن الأحداث الهامة و التطورات العلمية الكبرى ، كإبداع المذهب الذري القديم، و الثورة الكوبرنيكية، و ظهور المذهب الذري الحديث ، و النشوء المتدرج للميكانيكا الموجية للضوء، لم تكن لترى النور، إلا لأن بعض العلماء و المفكرين ، قد قرروا أن لا يلتزموا بقواعد محددة و ثابتة ، أو لأنهم اخترقوها أو تخطوها عن غير قصد(22' 1979 «. feyerabend) ، كما أن تاريخ العلم، و تاريخ المنهج ذاته يكشف لنا عن عدم وجود منهج محدد لتحصيل المعرفة و اكتشاف الحقيقة، فقد كانت المعرفة مؤسسة على التأمل و المنطق ، ثم أدخل «أرسطو» إجراءا تجريبيا أكثر تطورا، بيد أن «ديكارت»، و «غاليلي» استبدلاه بمناهج ذات طابع رياضي، ثم انصهر كله في نزعة تجريبية متطرفة ، غير أن هذه الإعاقات و الانتهاكات لهذه المناهج ، لا ينبغي أن تؤخذ كباعث على استبعادها (فيرابند. 2000 ، 116) ، فكل هذه المناهج ضرورية لتطور العلم.

إن هذه الممارسة الحرة أو عملية تجاوز المنهج القائم ليست فقط مجرد واقعة أثبتها تاريخ العلم، و لكنها ضرورية لنمو المعرفة و تقدم العلم ، و ذلك لأن سيطرة المنهج الواحد من شأنه أن يؤدي حسب «فيرابند» إلى تقليص مساحة العلم و يحرمنا من نظريات كثيرة، و قد يحالفها الصواب في توسيع معارفنا ، فليست هناك مناهج أو قواعد ثابتة صالحة صلاحية شاملة و مطلقة للممارسة و البحث العلمي، يقول «فيرابند» : « إن فكرة منهج كلي راسخ، و التي تعد مقياسا ثابتا للوفاء بالمراد، بل و حتى الفكرة التي تقول بعقلانية كلية راسخة، إنما هي فكرة غير واقعية مثلها في ذلك مثل الفكرة التي تؤمن بأداة قياس راسخة يمكنها أن تقيس أي كتلة من دون أي اعتبار للظروف المحيطة بها، إن العلماء كثيرا ما يعدلون معاييرهم و إجراءاتهم ، و مقاييس العقلانية عندهم ، لأنهم يتحركون إلى الأمام ، و يدخلون مجالات بحث جديدة»(فيرابند. 2000 ، 116) .

و على هذا الأساس يعارض «فيرابند» كل الميتودولوجيات التي عرفتها فلسفة العلم التي تفترض وجود معايير

و قواعد ثابتة كلية ، و لا تاريخية ، و لا يجب أن نفهم من دعوة «فيرابند» إلى «ضد المنهج»، أو «اللامنهج» non-méthode، أن البحث العلمي يسير خبط عشواء ، و دون أية قواعد ، أو إجراءات عملية ، أو أنه بنفي المنهج مطلقا، و إنما يعني «اللامنهج»: لا يوجد منهج علمي محدد ، كلي و لا تاريخي ، و ليست هناك مبادئ و قواعد، أو شروط مسبقة ، ثابتة و نهائية ، تحدد منهج العلم، و مسيرته، كما هو الشأن عند التجريبية المنطقية و التكذيبية البربرية، فدعوى فيرابند ضد المنهج تدخل في معركة ضد الميتودولوجيا المفروض فيها أن تقدم قواعد العمل أو السلوك للمشتغلين بالعلم (شالمرز. 1991 ، 135) ، فاللامنهج ، هو إجراء فوضوي ، في مقابل الالتزام المتزمت بالقواعد و المعايير العقلانية، و الغرض منه تحرير العلم وفسح المجال للإبداع والحرية الإنسانية ، كما أن «اللامنهج» يعني عدم فرض منهج معين،

أو طريقة بحث معينة ثم العمل على قولبة موضوع الدراسة أو البحث داخل ذلك الإطار المنهجي ، لأن ذلك لا يناسب الوضع الحقيقي للعلم ، فقواعد و إجراءات البحث العلمي تتحدد بظروف و أهلية البحث ذاته و معايير الحكم

عليها، و تعديلها أو تغييرها، لابد و أن تكون متكيفة مع العمليات و المواضيع التي يبحث فيها. «(فيرابند. 2000 ، 116) .العلم ما هو إلا محصلة لعملية البحث ، و ليس لإتباع قواعد معينة ، و من هنا فان «فيرابند» لا يرفض كافة المناهج العلمية ، بل يرفض طابعها الإيديولوجي المتمثل في النزعة الكلية و اللاتاريخية التي تتصف بها .

و يستدل «فيرابند» على رفضه للمنهج الواحد القائم على قواعد و معايير ثابتة – بأن العلم ظاهرة معقدة ، و ليس نسق بسيط منظم ، «فكل وضعية علمية واقعية، هي وضعية معقدة، تنمو بكيفية غير قابلة للتوقع ، و لذلك فانه من العبث أن نتمنى العثور على منهج يمكنه أن يدل العالم العقلاني في سياق معين فيما إذا كان عليه أن يتبنى النظرية (أ) برفضه للنظرية (ب) ،أو العكس تبني النظرية التي تتطابق مع وجهة نظر استقرائية تطابقا أفضل مع وقائع أو ظواهر معترف بها ، و رفض النظرية غير المتوافقة مع وقائع متداولة بصورة عامة، هاتان القاعدتان هما من القواعد التي لا تتوافق و اللحظات التي جرت العادة بتحديدهما و تعيينهما على أنها اللحظات البارزة في تاريخ العلم (شالمرز. 1991 ، 135) ، كما أنه العلم ليس نشاطا عقلانيا خالصا ، تحكمه مجموعة من القواعد الميتودولوجية و المنطقية ، فقد أثبت تاريخ العلم أن العوامل اللاعقلانية، كالخيال ، الحدس، العاطفة، الأسطورة، لها دورا كبيرا في تطوره ، كما أن العلماء لم يتقيدوا دائما بهذه القواعد المنطقية و المنهجية، و يعد «غاليلي»، أهم مثال في تاريخ العلم يسترشد به «فيرابند» لإثبات فكرة أهمية التحرر من القيود و المناهج التقليدية ، و الرأي الشائع و الأفكار السائدة و تبني الفروض المعاكسة

، و ذلك من خلال محاولة «غاليلي» الدفاع عن النسق «الكوبرنيكي» المتعارض مع النسق الأرسطي السائد آنذاك ، فعندما أعاد «كوبرنيك» إحياء الفكرة الفيتاغورية عن حركة الأرض ، اعترضتها صعوبات تتجاوز تلك التي اعترضت النسق البطليمي (بطليموس)، و كان يمكن اعتبار نظريته نظرية مفندة ، لكن «غاليلي» عمل على إنقاذ فرض حركة الأرض و النظرية الكوبرنيكية ، عن طريق وضعه لأنواع جديدة من الوسائل ، كالتلسكوب الذي غير به الجوهر الحسي للتجربة و الملاحظة ، و الاستناد إلى علوم مساعدة تنطوي على قواعد تصف الخصائص و التأثيرات للغلاف الجوي للأرض ، و قوانين البصريات المرتبطة ببنية العين (علم الفيزيولوجيا) ، و قوانين الديناميكا التي تدرس الحركة في المجالات المتحركة ، و نسبية الحركة (feyerabend .»1979 ’22) و قد دعم «غاليلي» حججه في الدفاع عن حركة الأرض ، بالاستناد إلى وسائل لاعقلانية كالدعاية ، و الحيل النفسية ، و الأساليب و التقنيات البارعة في إقناع خصومه ، كالكتابة باللغة الايطالية بدل اللاتينية ، و الاستنجاد بأشخاص يعارضون الأفكار القديمة و مبادئ التعلم و قواعد المعرفة المرتبطة بها (feyerabend .»1979 ’152)

إن دفاع «غاليلي» عن الكوبرنيكية لم يقم حسب «فيرابند» على أسس عقلية و منطقية ، بل تدخلت في ذلك اعتبارات لا عقلانية ، و من دونها ما كان للثورة الكوبرنيكية أن تحدث هذا التقدم في العلم، ذلك لأن تقبل الأفكار الجديدة، و النظريات التي تتعارض مع الواقع المألوف ، يكون عن طريق وسائل غير عقلانية، كالدعاية ، و العواطف و النظريات الخاصة، و تحتاج هذه الوسائل إلى التمسك بها ، و الإيمان بها ، حتى تظهر العلوم المساعدة و الحقائق، و المناقشات التي تحول هذا الإيمان إلى معرفة صلبة (feyerabend.1979 ’165)

و لكن إذا كان «فيرابند» يعارض مشروع العقلانية القائم على المنهج الواحد الثابت، و يرفض كل الميتودولوجيات التي عرفتها فلسفة العلم الكلاسيكية و المعاصرة ، لاسيما الاستقرائية، و التكذيبية ، فما هو البديل الذي يقدمه في مقابل المنهج العلمي بالمعنى السابق؟ و هل يطرح «فيرابند» منهجا مغايرا ؟. إن الاجابة عن هذا السؤال تكمن في ما يعرف بالتعددية المنهجية و النظرية التي تعد المبدأ الأساسي لمفهوم العقلانية العلمية عند «فيرابند» .

العقلانية العلمية و التعددية المنهجية:

إن رفض «فيرابند» لوجود منهج علمي كلي، و لا تاريخي ، و رفضه للعقلانية العلمية القائمة على القواعد و المعايير الثابتة ، و نقده لكل الميتودولوجيات المعيارية ن لا يعني وقوعه في دوغماتية بديلة ، و استبدال قواعد ، و مناهج بأخرى بل هي دعوة إلى الاعتراف بأن كل المناهج ، و كل الأفكار مقبولة، و هي دعوة ضد التنميط و الأحادية ، حيث يقول «ليست لدي نية في استبدال مجموعة قواعد عامة بأخرى ، بل مقصدي ، هو إقناع القارئ ، بأن كل الميتودولوجيات ، حتى أكثرها وضوحا و بداهة لها حدودها ، و أفضل طريقة لإثبات ذلك هي بيان

حدود ، بل لا عقلانية بعض القواعد التي لديها الحظ في أن تعتبر من قبل البعض أساسية» (165’ 1979. feyerabend).

و على هذا الأساس يدعو «فيرابند» إلى التعددية المنهجية ، التي يعتبرها السبيل الأمثل لتحقيق التقدم في العلم و المعرفة ذلك لأن وحدة الرأي ، و وحدة المنهج تؤدي إلى كبح الخيال، و إعاقة العلم ، و الحد من القدرات الإبداعية للإنسان.– كما أن وحدة الرأي كما يقول « فيرانبد» قد تكون مناسبة للكنيسة و الضعفاء و الراغبين في إتباع أحد المستبدين أو الطغاة، لكن تنوع الآراء ضروري للمعرفة الموضوعية، و المنهج الذي يشجع التنوع، هو المنهج الوحيد الذي يتناسب مع النظرة الإنسانية (165’ 1979. feyerabend) .

إن التعددية المنهجية التي يدعو إليها « فيرانبد» تعددية تؤمن بوجهات النظر المختلفة، و بالبدائل النظرية المتعددة، و كل الأفكار و الفروض و النظريات حتى تلك التي تم نبذها في الماضي عن طريق منافسيها، لأنها قد تفيدنا في توسيع نطاق معارفنا، فالعقلانية التي ينشدها فيرانبد: « ليست حلقات من سلسلة النظريات المتوافقة و التي تتجه إلى الصدق، و إنما زيادة محيط البدائل غير المتوافقة، و ربما البدائل غير القابلة للقياس(27’ 1979. feyerabend) ، و لهذه البدائل مصادر مختلفة، فقد يتم أخذها من الأساطير القديمة أو من تجارب الخبراء أو من خيالات الشواذ ، أو من النظرية الذرية أو من الطب الصيني القديم، كل هذه النظريات و الأفكار قد تفيد في تطوير معرفتنا (49’50’ 1979. feyerabend) .

و لهذا يرى «فيرانبد» أن جميع الميتودولوجيات القائمة في فلسفة العلم لم يتوصل أي منها إلى الأنباء بما هو العلم، لأنها تختزل العلم في مجموعة من القواعد البسيطة، في حين أن المعرفة ، و من ثمة العقلانية التي نحتاجها في فهم و تقدم العلم لا تأتي من القواعد و النظريات، و إنما من مشاركة وجهات النظر المتعددة (323. 1989. feyerabend) طبقا لشعاره: « كل شيء حسن».

إن دعوة «فيرانبد» إلى التعددية المنهجية و رفض المنهج الواحد ، تتفق في بعض أوجهها مع وجهة نظر بعض فلاسفة العلم المعاصرين، أمثال: « توماس كون» و «مايكل بولاني»(1891 – 1976).M « Polany و «غاستون باشلار»(1884–1962) « G.Bachlard » فقد سبق « لتوماس كون « أن رفض في مؤلفه «بنية الثورات العلمية « وجود قواعد و معايير (عقلانية) خارجية تحدد الممارسة العلمية، فالقواعد تخضع للتطور و النقد أو الفحص عن طريق البحث ذاته، وتتغير بتغير النموذج الإرشادي الذي يوجه البحث العلمي ،

و قد بين «مايكل بولاني» « M.Polany » أن التقيد بمنهج واحد ، و وحيد من مناهج العلم، يؤدي

إلى الحد من النشاط الديناميكي للمعرفة الإنسانية، فلا وجود حسب «بولاني» إطار معرفي واحد يمكن وصفه بأنه عقلاني و موضوعي، فلكل عالم وجهة نظره الخاصة، و تطلعاته المعرفية، و خلفيته المعرفية و الاديولوجية، و عليه فالإبداع لا يأتي عن طريق إتباع منهج محدد ثابت، و لا من الخبرة المباشرة للواقع التجريبي، بل من خلال المشاعر و الأحاسيس و التخمينات و الحدوس و الخيال و التعهدات الإنسانية و هو ما يعرف عند «بولاني» بمصطلح: « المعرفة الكامنة» (قطب.2000، 20) كما رفض « G.Bachlard »: (1884–1962)، وجود منهج علمي واحد صالح لكل علم و لكل معرفة، فكل تقدم في الفكر العلمي، و كل تجربة جديدة كفيلة بأن تغير الفكر العلمي برمته لا المناهج فحسب (bachlard.1949'20) فلكل علم منهجه الخاص، و مفاهيمه الخاصة التي تتلائم و المرحلة التي هو عليها هذا العلم أو ذاك، « فكل خطاب حول المنهج العلمي سيكون دائما خطابا سياقيا، و لن يتصف بالبنية النهائية» (باشلار.1994، 151)

إن هذه الآراء و رغم أنها تتفق مع موقف فيرابند في بعض الجوانب المتعلقة بعدم وجود منهج علمي واحد صالح لكل علم، و أن المناهج تتعدد و تتغير بتغير مجالات العلم و المعرفة،وبتطور التفكير العلمي ، إلا أن أطروحة فييرابند تختلف عن هذه المواقف من حيث المبدأ ، ومن حيث الهدف ، ذالك للان رفض فييرابند للمنهج الواحد وتبنيه لتعددية المنهجية والنظرية كان الغرض منه تخليص العلم من كافة القيود والمعوقات التي كبلته به الميتودولوجيات المعيارية ، والرغبة في أنسنة ظاهرة العلم ، فالتعددية ليست مهمة للميتودولوجيا فقط بل أيضا تشكل جزءا أساسيا للنظرة الإنسانية ، (feyerabend .1979 '45') ، هذه النظرة التي لاتجعل من العلم شبكة من العلاقات المنطقية ، بل نشاطا إنسانيا متدفقا تشارك فيه كل الفاعليات الإنسانية العقلية واللاعقلية ، فالعقل والمنهج العقلاني هو أحد أوجه تلك النظرة الإنسانية ، لا وجهها الوحيد .

ان العقل العلمي الذي يؤمن به» فييرابند» هو ذالك العقل المتفتح الذي يعترف بوجود الالامعقول ، وما يتضمنه من مظاهر عدم النظام ، والتناقض ، والثغرات المنطقية ، والأساطير ، والخيال ، فكل ابداع ، وكل ابتكار يتضمن قسطا مما يتجاوز العقل ، والعقلنة تستطيع فعلا ان تفهمه بعد الاطلاع ، لاقبله (ادغار.2006، 39) فالعقل المتفتح قابل لان يناقش ويتفاعل مع أي شيء ، وكل شيء قد يكون من شأنه أن يسهم في تقدم العلم فكل المناهج مقبولة وكل الآراء مقبولة مادامت تفي بالغرض .

الخاتـــــــــمة

لقد حاولنا من خلال البحث أن نسلط الضوء على إحدى الإشكاليات التي طرحتها فلسفة علم ما بعد الحداثة ، كما عبر عنها بول فيرابند، وتوصلنا إلى جملة من النتائج تلخصا في النقاط التالية :

لقد أفضت الحركة النقدية لفلسفة علم ما بعد الحداثة إلى ضرورة مراجعة مفاهيم العقل والعقلانية والموضوعية والمنهج العلمي التي سيطرت على مجمل تاريخ الفكر الإنساني عامة ، والفكر العلمي خاصة ، وأدت إلى تجاوز

التصور الغربي للعلم والاستعاضة عنه بتصور جديد يتماشى والتطورات التي عرفها الفكر العلمي المعاصر .

إن النزعة النقدية التي ميزت فلسفة علم ما بعد الحداثة كان الهدف منها أنسنة العلم ، فالعلم نشاط إنساني معقد تشاركت فيه عناصر أساسية سيكولوجية اجتماعية و تاريخية ، و بالتالي تلاشت تلك الصورة التقليدية التي سادت حقبة من الزمن، و التي تنظر إلى العلم على أنه مجموعة من النظريات و القوانين العلمية الموضوعية التي يمكن أن التثبت منها بشكل قاطع بواسطة جملة من القواعد تشكل منهجا علميا، و لا زالت هذه النظرة تسيطر على فكر بعض الباحثين في عالمنا العربي، الذين يعتقدون أن هناك أوجه تناقض بين العلم و التفكير العلمي، و بين العقائد الدينية.

إن الانتقادات التي وجهها فيرابند للعلم ، و العقل و العقلانية كما عبرت عنها أشهر مؤلفاته «وداعا للعقل» و «ضد المنهج» و «العلم في مجتمع حر» ، لا ينبغي أن يفهم منها أنه ضد العلم ، و التفكير العلمي وليست دعوة إلى اللاعقلانية ، بل هو ضد النمطية ، وضد النظرة الواحدة ، و ضد العقل الغربي الذي تحول إلى عقل أداتي بفرض سيطرته و هيمنته تارة باسم المنهج العلمي ، و الموضوعية ، و تارة باسم العقلانية ، و تارة باسم العولمة و النظام العالمي الجديد ،

إن الدرس الذي يمكن أن نستفيد منه من خلال التعددية المنهجية والثقافية التي تبناها فيرابند في مشروعه الابستمولوجي ،يكمن في ضرورة التفكير في تكوين عقلية عربية تكون التعددية بجميع إبعادها الثقافية ، والعلمية ، والسياسية ، و المذهبية الدينية أساسها و جوهرها ، فلا مجال ، ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين للواحدية ، و وجهة النظر الواحدة ، أو المنهج الواحد أو الحزب السياسي الواحد ، أو النخبة الثقافية الواحدة ، هذه الواحدية التي طبعت العقلانية العربية طيلة قرون عديدة مما ولد القهر ، والتسلط ، والدكتاتورية ،وما رافقها من فقدان الإنسان العربي لقيمته ، فلابد أن يدرك الإنسان العربي أن جميع وجهات النظر ، والمناهج ، والأحزاب ،والمذاهب ، والنخب الثقافية المختلفة ، يمكن أن تساهم في صنع وبناء مستقبلنا العلمي والثقافي والحضاري .

المصادر والمراجع :

بالفرنســــــــــــــــــــــية :

المصادر:

1) Feyrabend p ’contre la méthode esquisse dune théorie anarchiste de la connaissance ’ tra : Baudoui jurdant et Agnes éditions de seuil paris 1979

2) Feyrabend p : Adieu la reison ’ ’ tra : Baudoui jurdant ’ éditions de

seuil' paris 1989 ' p339

المراجع:

1) Bachlard G' la philosophie de non ;paris 'puf 1940

بالعـــــــربيـــــة :

الموسوعات:

1) اندري لالاند الموسوعة الفلسفية ، ترجمة خليل احمد خليل ، منشورات عويدات ، بيروت ،ط 2

المصادر:

1) فيرابند بول : العلم في مجتمع حر ، ترجمة السيد نفادي ،تقديم سمير حنا صادق ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 2000 ص 91.

2) فيرابند بول ، ثلاث محاورات في المعرفة ، ترجمة محمد أحمد السيد ، منشأة المعارف ،الاسكندرية ،1997 .

المراجع:

1) الان شالرمز ، نظريات العلم ،، ترجمة الحسين سحبان وفؤاد الصفا ، دار توبقال للنشر ، المغرب ط1 ، 1991 .

2) باشلار غاستون ، الفكر العلمي الجديد ، ترجمة عادل العوا ، تقديم جيلالي اليايس ، موفم للنشر ، الجزائر ، 1994 .

3) بدوي عبد الرحمن ، مناهج البحث العلمي ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، 1968 .

4) بدوي عبد الفتاح ، فلسفة العلوم ، دارقباء ، القاهرة ، 2001 .

5) حسين عبد الحميد ، دراسات في الابستمولوجيا ، المطبعة الفنية الحديثة ، القاهرة ، 1992 .

المقالات:

1) خالد قطب ، الابستمولوجيا ، الشخصانية ،دراسة في فلسفة مايكل بولاني ، مجلة كلية الآداب ، القاهرة ، ماي 2006 .